الفصـــل الأول

الانحراف والانحدار والانحطاط

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[1].

ذلك وعدٌ من الله . ووعد الله حق . ووعد الله واقع – ولن يخلف الله وعده ، فقد تحقق ذلك الوعد لأمة محمد ﷺ في حياته وحياة الخلفاء الراشدين من بعده وظل متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله ، حتى فتحوا الممالك وأدالوا دولتي فارس والروم ونشروا الإسلام في أرجاء المعمورة المعروفة لهم ، حتى وقف عقبة بن نافع بفرسه على شاطىء المحيط بعد فتح المغرب قائلاً : والله لو أعلم أن وراءك أرضاً لغزوتها في سبيل الله ، وحتى أعطتهم ملوك الأرض الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعندما سمع الخليفة العباسي أن الروم أهدنوا امرأة مسلمة فصاحت مستغيثة : « وامعتصماه » أنفذ إليها جيشاً لنجدتها وتأديب الروم وأخذ الجزية ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[2] .

« حتى إذا خالفت الأمة عن منهج الله وانحرفت عنه ، تخلفت في ذيل القافلة ، وذلت ، واستبد بها الخوف ، وتخطفها الأعداء ، فشرط الله هو اتباع شريعته في كل أمر من أمور الحياة صَغُر أو كَبُر ، والاستسلام لأمره وطاعته وحده ابتغاء وجهه تعالى ، والاستخلاف في الأرض وفق المنهج والشريعة التي ارتضاها سبحانه وتعالى لعباده .

ولا يبطىء النصر والاستخلاف والتمكين إلا من تخلف شرط الله ، وعدم تحققه في جانب من الجوانب ، أو في تكليف من التكاليف ، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة ، وتخلفت فطلبت الاستخلاف ... كل ذلك بالوسائل التي أرادها الله وبشروطه التي قررها الله ... تحقق وعد الله الذي لا يتخلف ، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعاً »[3].

ألا وإن وعد الله قائم إلى يوم القيامة . ألا وإن شرط الله معروف فمن شاء الوعد فليقم بالشرط . ومن أوفى بعهده من الله ؟ .

---

(١) سورة النور : ٥٥ .

(٢) سورة المنافقون : ٨ .

(٣) « في ظلال القرآن » .

فمن هذا المجد والعز السامق – حين خاطب الخليفة العباسي هارون الرشيد سحابة مرت عليه : قائلاً : شرِّقي أو غرِّبي فلسوف يأتيني خراجك ، كناية عن اتساع ملكه – إلى ذلك المنخفض السحيق – حين انتهى سلطان المسلمين في الأندلس وتلتها « أندلسات » أخرى في صقلية والممالك الإسلامية في آسيا (روسيا والصين) وجزر « الفلبين » وزنجبار وجامو وكشمير ، وأصبحت كل أرض المسلمين – ماعدا شبه جزيرة العرب – محتلة في هذا القرن العشرين الميلادي وكانت النكبة الكبرى في احتلال أرض فلسطين المباركة بواسطة أذل خلق الله : اليهود ، إيذاناً وإعلاناً بمدى الهوان والمذلة التي وصل إليها المسلمون ، وكانت محاولة الغزو السوفيتي لأرض الأبطال : أفغانستان المسلمة التي هزمت جيش الإسكندر الأكبر ، وكذلك جيش الامبراطورية الانجليزية في عصرها الذهبي ـــ وندعو الله أن يتم نصره للمسلمين هناك ـــ ثم رأينا محاولات الأعداء لسلخ السودان ولبنان عن الأمة الإسلامية بل أصحى وجود المسلمين في عقر دارهم مهدداً بالزوال والاستئصال ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، القائل : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] – فقد انخلعت عنا صفة « العزة » هذه ، منذ أن انخلعت عنا صفة الإيمان بصورة شبه كاملة .

نقول لقد انحدرنا من هذا العز السامق إلى ذلك المنخفض السحيق – وكان هناك سببٌ وحيدٌ وأساسي وإن كانت له مظاهر وأعراض متعددة .

هذا السبب الوحيد والأساسي هو : البعد والانحراف عن منهج الله – عز وجل – ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا** ﴾.

فقد قال رسول الله ﷺ : « تركت فيكم ما إن استمسكتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة رسوله » .

﴿ **وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ الأنعام : ١٥٣ .

فقد روى الدَّارميّ عن عبد الله بن مسعود قال : خَطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ، ثم قال :

« هذا سبيل الله » ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال : « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها » .

ثم قرأ هذه الآية السابقة ، وكذلك أخرجه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله ، قال الإمام

---

(١) سورة المنافقون : ٨ .

القرطبي : (وهذه السبل تضم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والحوض في الكلام وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

فالهرب الهرب ، والنجاء النجاء . والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم ، الذي سلكه السلف الصالح وفيه المتجر الرابح)[1] .

أما عن مظاهر وأعراض البعد والانحراف عن منهج الله التي أوصلتنا إلى هذه الهوة السحيقة المظلمة الموحلة فهي كثيرة نَعُدُّ منها الآتي :

١ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

فقد أخرج ابن داود والترمذي[2] عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل أول ما يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال :

﴿ لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٭ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾ إلى قوله : **﴿ فاسقون ﴾** (المائدة : ٧٨ - ٨١) .

ثم قال :

« كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنّه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعنكم كما لعنهم » .

وأخرج ابن ماجه في سننه :

« ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي وهم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمّهم الله بعقاب » .

وكذلك أخرج الترمذي :

« إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده » .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - الإمام القرطبي - ص ٢٥٧٣ - ٢٥٧٤ .
(٢) المصدر السابق - ص ٢٢٥٠ .

وهذه سنة الله في عباده ، إذا فشا فيهم المنكر ولم يغير عوقب الجميع .

وقد أخبر الله تعالى عن سبب تفضيله لأمة الإسلام :

﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

قال مجاهد : كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف – فهو مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم .

٢ – الإستبداد والظلم والبطش :

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« بئس القومُ قومٌ يقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط من الناس ، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم تقية »[١].

وقد روى أنس بن مالك قال :

قيل : يا رسول الله ، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

قال : « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم »

قلنا : يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ؟

قال : « الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رُذَالكم »

أي : الفساق ، أخرجه ابن ماجه[٢].

وقد قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ (غافر : ٥١) .

قال السدي : ما قتل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم ، فصاروا منتصرين فيها وإن قُتِلوا[٣]. وقد بلونا صحة ذلك في تاريخنا الحديث مرات عديدة . فالظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه .

وقد ذم الله تعالى عاداً قوم هود لبطشهم وبغيهم : ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ (الشعراء : ١٣٠) . فالبطش مذموم إلا بحق ، والآية نزلت خبراً عمن تقدم من الأمم ، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم .

---

(١) ، (٢) الجامع لأحكام القرآن – الإمام القرطبي – ص ١٢٩١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ص ٥٧٦٦ .

قال الإمام القرطبي[1]:

(وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة وقد أخبر ﷺ أن ذلك سيكون ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت لا يدخلن الجنة ولا يجدون ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

وأول من سَنّ هذه السُنّة السيئة في الإسلام هم بنو أمية فنكلوا بمعارضيهم حتى ولو كانوا على حق ، وبطشوا بطشاً فظيعاً ، وقتلوا سعيد بن جبير والصحابي عبد الله بن الزبير وحجر بن عدي وكانت فعلتهم النكراء وفظاعتهم الشنعاء في كربلاء حيث قتلوا سيد شباب أهل الجنة سيدنا الحسين رضي الله عنه سبط رسول الله ﷺ وقتلوا آل البيت معه ، واستباحوا مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام سنة ثلاث وستين من الهجرة في موقعة الحَرَّة وقتل بها عدد كبير من الصحابة والتابعين أيام يزيد بن معاوية .

وقد خرج أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » .

وقد ترتب على هذا البطش والظلم شيوع الفساد والمنكر ، وتوارى الصالحون الأكفاء وظهر المنافقون المزينون لكل ذي سلطان ما يهوى ولو كان مخالفاً للشرع .

قال سيدنا الحسن بن علي[2] لما مات الحجاج :

« اللهم أنت أمَتّه فاقطع عنا سُنّته – أو شَيْنَته – .. فقد كان يصعد المنبر فيهدر حتى تفوته الصلاة .

لا من الله يتقي ، ولا من الناس يستحي ، فوقه الله عز وجل وتحته مائة ألف أويزيدون لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل .

ثم يقول الحسن :

هيهات ! – حال دون ذلك السيف والسوط » .

وقد أدى الاستبداد السياسي إلى وجود بيئة لا توفر حرية للفرد ، ولا تصون كرامة للإنسان فأدت إلى وجود أجيال تعيش حياة هامشية لا تفكر ولا تساهم في قضايا أمتها أو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ص ٤٨٤٠ – ٤٨٤١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن – الإمام القرطبي – ص ١١٥٩ .

في رفعتها والدفاع عنها ، بيئة تشجع الجهل والخمول والاستكانة مما خنق روح الإبداع العلمي في النفوس وأدى إلى التخلف العلمي والتقني الذي نعيشه الآن والذي لا ينمو إلا في بيئة حرة تصون كرامة الفرد .

وبسبب ذلك الاستبداد السياسي برز مستشارو السوء فضلوا وأضلوا .

٣ – بطانة السوء وعلماء السلطان :

هم الذين زينوا لكل مسؤول رأيه وإن كان مخطئاً ، وكتموا الحق وباعوه نظير دراهم معدودة أو منصب زائل ، وألبسوا الباطل ثياب الحق وهم يعلمون .

قال تعالى : ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ (الأعراف : ١٦٩) .

« فهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به الأمم قبلنا وجد فينا ، فقد أخرج الدَّارميّ عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ :

« سَيَبْلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى لثوب فيتهافت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الـذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، وإن قصدوا قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا : سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً »[١].

وقد أخبر الله تعالى في الكتب قبلنا : ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ** ﴾ ففيه تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكم وألا يميل الحكام بالرشا إلى الباطل ، يقول الإمام القرطبي[٢] : « وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليه الميثاق في قول الحق ، لازم لنا على لسان نبينا ﷺ وكتاب ربنا ، ولا خلاف فيه في جميع الشرائع » .

وقد زين علماء السوء لكل صاحب هوى هواه – وهم يعلمون – فأحلوا الحرام وحرموا الحلال وفقاً لمزاج ولي الأمر ، فإن دُعِيَ إلى « الاشتراكية » ، قالوا : الإسلام أمر بها وأن الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار .

وإن دُعِي إلى « الرأسمالية » ، قالوا : إن الإسلام احترم الملكية الخاصة ، وعقب حرب سنة ١٩٦٧ أفتوا بأن الإسلام حرم الصلح والاعتراف بمن اغتصب أرض المسلمين وحينما تغيرت الأحوال السياسية عقب حرب ١٩٧٣ ، أفتوا بأن الإسلام دعا إلى السلم والسلام ... ، حدث ذلك رغم علمهم بقوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾[٣] (ففيها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع ، فكل من بدل وغير

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن – ص ٢٧٤٧ .

(٢) المصدر السابق – ص ٢٧٤٨ .

(٣) سورة البقرة : ٧٩ .

أو ابتدع في دين الله ماليس فيه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد ، والعذاب الأليم ، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته عاقبة ما تكون في آخر الزمان فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة » .

فحذرهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه فيضلوا الناس ، وقد وجد ما حذره وشاع ، وكثر وذاع ، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[1] .

٤ – ذيوع الفساد والمعاصي :

ترتب على الأمور الثلاثة السابقة أن ذاع الفساد وانتشرت المعاصي بدرجات متفاوتة ، حتى صارت للبغاء دور مصرح بها من قبل السلطات ، وحتى شربت الخمر وأقيمت لها المصانع وأماكن الشرب . بل خصص الحرس لحراسة هذه الأماكن المرذولة فانتشر الفجور و لزنى والاغتصاب وبقية المعاصي فحق علينا العقاب .

يقول تعالى : ﴿ **وإن من قريةٍ إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا** ﴾ (الإسراء : ٥٨) .

قال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله في هلاكهم .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** ﴾ . (الإسراء : ١٦) .

فلننظر حال مترفينا وأثريائنا على موائد القمار في أوربا وبين أحضان الغانيات وسط كؤوس الخمر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد روى الترمذي من حديث علي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ، فذكر منها :
« إذا أُتّخِذَت القَيْنات والمعازف » .
وفي حديث ابن جرير :
« ظهرت القيان والمعازف »

وقد روى الطبري عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : « أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب » .

---

(١) المصدر السابق – ص ٤٠٤ .

فقد قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة ﴾ .

فقد أخرج أحمد من حديث عدي بن عميرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » .

فقد جعل الله المعاصي والذنوب سبباً للهلاك والعقاب كما أخبرنا تعالى عن قوم نوح وهود ولوط وصالح وشعيب ، وفي موطأ مالك عن عبد الله بن عباس أنه قال : « ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنى في قوم إلا كثر فيهم الخبث ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم ، ولا خفر قوم بالعهد إلا سلّط الله عليهم العدو » .

وقد رأينا مصداق ذلك في انتشار طاعون العصر « الإيدز » وانهيار العلاقات الاجتماعية بين الناس بل بين الجيران والأقارب ، بل داخل الأسرة الواحدة .

٥ - الغزو الفكري والتقليد الأعمى :

فَتَحْتَ دعاوَىٰ الحرية الشخصية والتحرر والرقي انتشر السفور والاختلاط والزنى وشرب الخمر .

وتحت دعاوى حرية الفكر هوجم الدين من أساسه وقواعده ، وتم التطاول على الصحابة والتابعين تحت ستار حرية النقد ، وهوجمت السنة النبوية المطهرة واللغة العربية وصولاً لهدم الدين ، وأقصيت الشريعة الإسلامية عن التطبيق والحكم تحت دعوى فصل الدين عن الدولة وظهرت المقولة الرعناء :

« لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين » .

وهوجمت الأسرة والزواج وصولاً لإيجاد جيل منحل منحرف ولم نترك نقيصة من نقائص الغير إلا استوردناها وطبقناها ، حتى حق علينا قول رسولنا الكريم ﷺ :

« لتتبعُنّ سنَنَ من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه » .

قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟

قال : « فمـــن » ؟

(قال ابن عباس : ما أشبه الليلة بالبارحة ، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم)[1].

---

(١) المصدر السابق - ص ٣٠٤٠ .

وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ (التوبة : ٦٩) .

روى سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضَبٍّ لدخلتموه » .

حتى حاكيناهم في ملابسهم ومطعمهم ومشربهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، فانظر إلى الملابس الغريبة الملتصقة بالجسم أو الواسعة بدرجة مهولة وقص الشعر تماماً أو إطالته « الخنافس » و « الهيبز » « الميكروجيب » و « الميني جيب » التي تبرز من الجسم أكثر مما تستر ، فكل ذلك أوجد أجيالاً فكرها وشعورها وعاطفتها مع أعداء دينها وبلادها وهم لا يشعرون أو وهم يشعرون .

٦ - حب الدنيا وكراهية الموت :

نتيجة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذيوع الفساد والمعاصي وترك الحبل على الغارب لشهوات النفس وزينة الحياة الدنيا والتقليد الأعمى بالانغماس في الشهوات جَبُن الناس عن لقاء الموت ، وكيف وهم لم يستعدوا له ؟

وعَبّوا من الحياة الدنيا فلم تزدهم إلا عطشاً إليها فصاروا راضين بأي حياة ولو كانت الذل بعينه وجبنوا عن الموت ولو كان فيه عزتهم ومجدهم ، وصدق فينا قول رسول الله ﷺ :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » ، قالوا : أمِنْ قلةٍ نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » . أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح .

وفي رواية أخرى : « ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟
قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

٧ - ترك الجهـــاد :

« ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا »[1].

(١) من كلام الخليفة الأول سيدنا أبي بكر .

قال تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

« في الآية خطاب لجميع المسلمين ، فبعد فتح مكة كان القتال حتى تبلغ الدعوة جميع الآفاق ، وحكمه باقٍ متمادٍ إلى يوم القيامة ، متخذ إلى غاية قوله عليه السلام : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » الخير : المغنم والأجر ، وقيل غاية نزول عيسى عليه السلام لأن نزوله من أشراط الساعة »[1] .

قال تعالى : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ (التوبة : ٤١) .

« فيتعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار (البلد) أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، وشباباً وشيوخاً كل على قدر طاقته من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مُكَثِّر فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب مالزم أهل تلك البلدة ، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام به ومدافعتهم ، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم وعليه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم ، فالمسلمون كلهم يدٌ على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين .

ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلها لزم المسلمين أيضاً الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة ويخزى العدو ولا خلاف في هذا »[2] .

قال ابن العربي : « ولقد نزل بنا العدو – في الأندلس سنة ٥٢٧هـ فجاس ديارنا وأسر خيرتنا وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده ، وكان كثيراً وإن لم يبلغ ما حددوه . فقلت للوالي والمولي عليه :

هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط به ، فإنه هالك لا محالة ، إن يَسَّركم الله له .

فَغليتْ الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصي ، وصار كل واحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وِجاره وإن رأي المكيدة بجاره .

---

(١) المصدر السابق – ص ٧٢٤ – ٧٢٥ .

(٢) انظر « الجامع لأحكام القرآن » للإمام القرطبي – ص ٢٩٩٠ .

فإنا لله وإنا إليه راجعون .
وحسبنا الله ونعم الوكيل »[1] .

والجهاد يحتاج إلى بذل بالنفس والمال ، قال تعالى : ﴿ **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة : ١٩٥) .

الإلقاء باليد إلى التهلكة : – في البخاري عن حذيفة – هو ترك الجهاد .

وقال أبو أيوب الأنصاري في غزو القسطنطينية ، الإلقاء باليد إلى التهلكة : أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد في سبيل الله »* .

« فالإسلام لم يكلف المسلمين إكراه غيرهم على اعتناق عقيدتهم بسبب أنها الصورة الكاملة الشاملة الصادقة الصحيحة لدين الله الواحد في الأرض .

﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾[2] .

وإنما كان الجهاد في الإسلام للذود عن مبدأ أساسي من مبادئه : مبدأ حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وكان لإزالة العوائق التي تحول بين الناس وسماع الدعوة ولحماية من آمن مس الفتنة والبطش والافتتان عن الدين ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[3] .

فالإسلام لم ينتشر بالسيف ، ولم يكن الجهاد لإجبار الناس على اعتناقه ، كما يردد الجاهلون والحاقدون والمغرضون وإنما كان الجهاد للأسباب الآتية :

١ – حماية المؤمنين بالإسلام ، حتى لا يفتنوا عن دينهم .
٢ – كفالة حرية الدعوة لدين الله ، وإزالة كل عقبة تمنع وصول دعوة الإسلام للناس كافة .
٣ – كفالة حرية الاعتقاد بلا قهر أو قسر .
٤ – إقامة العدالة الكبرى في كل الميادين للبشر كافة »[4] .

﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ** ﴾ (البقرة : ٢١٦) .

« عسى » من الله : إيجاب .

---

(١) المصدر السابق – ص ٢٩٩١ .
* الجامع لأحكام القرآن – ص ٧٣٥ – ٧٣٦ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٦ .
(٣) سورة البقرة : ١٩٣ .
(٤) « في ظلال القرآن » و « السلام العالمي والإسلام » – سيد قطب – ص ١٦٩ – ١٧٠ .

أي عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تَغلِبون وتظهرون وتُؤجرون أو من مات مات شهيداً .

وعسى أن تحبوا الدعة وترك الجهاد وهو شرٌّ لكم في أنكم تُغلَبون وتُذَلون ويذهب أمركم .

قال الإمام القرطبي :

« وهذا صحيح لا غبار عليه ، كما اتفق في بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ، فاستولى العدو على البلاد ، وأي بلاد ؟ وأسر وقتل وسبى واسترق فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ذلك بما قدمت أيدينا وكسبت »[1].

ونقول :

وما أشبه الليلة بالبارحة ! .

وقد ذكر الإمام القرطبي في تفسير الآية ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

مايلي :

« هكذا يجب علينا نحن أن نفعل ، لكن الأفعال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا »[2].

ففي البخاري : قال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم ، وفيه مَسند – أن النبي ﷺ قال : « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

فالأفعال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة !

قال الله تعالى : ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ورابِطُوا واتقُوا الله** ﴾ .

وقال : ﴿ **وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا** ﴾ .

وقال : ﴿ **إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ .

وقال : ﴿ **إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ** ﴾ (النحل : ١٢٨) .

وقال : ﴿ **وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** ﴾.

وقال : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة** ﴾ .

فهذه أسباب النصر وشروطه . وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا . فإنا لله وإنا إليه

---

(١) انظر « الجامع لأحكام القرآن » – ص ٨٤٧ .

(٢) المصدر السابق – ص ١٠٦٣ .

راجعون على ما أصابنا وحل بنا . بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ، وكثرة الطغيان ، وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقاً وغرباً ، براً وبحراً ، وعمت الفتن ، وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحيم » (ا. هـ)* .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« اجتنبوا السبع الموبقات ، ... وفيها – وأكل الربا » .

وصدق رسولنا الكريم في قوله : « جعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري » . أخرجه الترمذي وصححه .

فلا سبيل أمامنا إلا الجهاد في سبيل الله ، وبذل النفس والمال لاستعادة أرضنا السليبة ، وحماية وحودنا المهدد بالاستئصال .

قـ (السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب) .

أما الرضوخ للدعة والراحة والتعلق بالأوهام الباطلة وأن ذلك هو « آخر الحروب » !!! والجري وراء الحلول الوسط والمؤتمرات الدولية والوسطاء « الأعداء » فلن نجني من ورائه إلا ذلاً بعد ذل ، وتفريطاً بعد تفريط ، وتهاوناً بعد تهاون ، ولن نجد أخيراً إلا قبض الريح في أيدينا بعد خمود جذوة الحماس ، والاستسلام لليأس ، والجري وراء السراب ، فالحذر . الحذر .

وقد بلونا ذلك بما فيه الكفاية حتى الثالة ، فماذا جنينا بعد ذلك ؟!. اللهم سوى الخسران المبين ، حتى صرنا أضحوكة العالم أجمع ، الذي لا يحترم إلا القوة وإن كانت الباغية المتسلطة ، فلا قيمة لحق لا تسنده القوة وتحميه ، وتلك هي عبرة التاريخ !

٨ – الفرقــة والتشــرذم :

قال تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً » : يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً . ولا تفرقوا ... »

حبل الله : شرع الله ومنهجه ، وهو القرآن .

« فالواجب علينا التمسك بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، والرجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاستمساك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً ، وذلك سبب لاتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي تقوم به مصالح الدنيا والدين ، والسلامة من

---

* تفسير القرطبي .

الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع ونهينا عن الافتراق »[1].

« فقد تم تمزيق هذا الجسد الواحد (الأمة الإسلامية) إلى أكثر من خمسين دولة متباينة المساحة وتعداد السكان ، وفي طبيعة الأرض وتنوع مصادر الحياة . وقد تمت هذه التجزئة – وأدت إلى قيام كيانات مصطنعة متفتتة ، لا يمكن لأي من دولها القيام بذاته ، أو من تشكيل وحدة اجتماعية/اقتصادية متكاملة أو شبه متكاملة – بواسطة القوى الاستعمارية العالمية (وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا ...

وقد أدى ذلك إلى تشتت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين ، في وقت أخذ العالم فيه الاتجاه إلى التوحد في تكتلات اقتصادية وسياسية وعسكرية ، ولم يعد فيه وجود مستقل ، أو إمكانية لمستقبل لأية تجمعات بشرية ، يقل تعدادها عن مائة إلى مائة وخمسين مليون نسمة .

وأدى ذلك التفتت إلى إفقار العالم الإسلامي رغم ثرواته البشرية والطبيعية الهائلة ، فالغالبية العظمى من سكان الدول الإسلامية اليوم – باستثناء الدول النفطية – تعيش تحت الحد الأدنى للكفاف اللازم لصون كرامة الإنسان ، وانقسم العالم الإسلامي إلى دول متخمة بالثراء إلى حد البطر ، وأخرى معدمة إلى حد الفاقة .

وبسبب الفقر والعوز والحاجة في معظم تلك البلدان أهملت عمليات التنمية البشرية والمادية : أهمل التعليم ، وبإهماله تفشت الأمية ، وانتشر الجهل والتخلف العلمي والتقني ، وساءت الأحوال الصحية ، كما أهملت التنمية الزراعية والصناعية والاجتماعية في غالبية الدول الإسلامية وبإهمالها تقلص الاقتصاد ، وزادت الديون ، وغرقت الأمة في الربا ولجأت إلى أعدائها من الدول الأجنبية طالبة عونها راضخة لشروطها متنازلة عن استقلالها وكرامتها »[2].

٩ – غياب الأخوة الإسلامية :

يقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[3].

انقلب حالنا إلى النقيض تماماً ، فقد حدثت المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ص ١٤٠٦ .

(٢) انظر : « التخلف العلمي والتقني ... في العالم الإسلامي المعاصر » – د. زغلول النجار – ص ١١٤ – ١١٥ .

(٣) رواه الشيخان .

ناهيك عن سقوط بعض الديار الإسلامية كأفغانستان حديثاً والأندلس قديماً ، فتقاعست معظم البلاد الإسلامية التي تستطيع العون عن النصرة والنجدة والغوث أو قدمت شيئاً يسيراً هزيلاً لا يغني ، بل إن بعض هذه الأقطار انحازت إلى العدو نكاية في هذه أو تلك من البلاد الإسلامية كما حدث في أرتيريا المسلمة ومسلمي قبرص وضد الباكستان في صراعها مع الهند ، وأفغانستان المسلمة وما أحداث مسلمي بلغاريا منا ببعيد .

يقول تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُم لَا يَأْلُونَكُم خَبَالاً** ﴾ (آل عمران : ١١٨) .

ويقول : ﴿ **لَا يَتَّخِذ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِياء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران : ٢٨) .

يقول الإمام القرطبي[١] : « وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب أمناء « مستشارين » وتسودوا بذلك عند الجهلة والأغبياء من الولاة والأمراء » .

ونرى ذلك حالياً في اصطفاء المستشارين غير المسلمين في أعلى مراتب السلطة وتميز غير المسلمين في جامعات ومعاهد ومراكز بحوث بعض دول العالم الإسلامي المعاصر .

١٠ - التناحر والعداوة :

هي الحالقة ، وهي محصلة كل ما سبق ذكره من أسباب .

يقول تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ** ﴾ (الأنعام : ٦٥) .

يقول الإمام القرطبي[٢] : « وهو الصحيح ، فإنه المُشَاهَد في الوجود ، فقد لبسنا العدو في بلادنا واستولى أموالنا وأنفسنا ، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا واستباحة بعضنا أموال بعض ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن » ، أما تفسير[٣] قوله تعالى :

﴿ **وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا** ﴾ (النساء : ١٤١) .

أي : أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا يمحو به الله دولتهم ، ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم ، إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ويتقاعدوا عن

---

(١) انظر : « الجامع لأحكام القرآن » - ص ١٤٢١ .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن » - الإمام القرطبي - ص ٢٤٤٥ .

(٣) المصدر السابق - ص ١٩٨٩ .

التوبة فيكون تسليط العدو من قِبَلهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ من مُصِيبَة فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

فقد روى مسلم[1] عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زَوَىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي فيها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وأني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وأن ربي قال يامحمد : إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها – أو قال مِن بين أقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً أو يسبي بعضهم بعضاً »

وروى النسائي عن خباب بن الأرت أن رسول الله ﷺ قال : « سألت الله عز وجل ثلاث خصال فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي عز وجل ألا يهلكنا كما أهلك الأم قبلنا فأعطانيها ، وسألت ربي عز وجل ألا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يلبسنا شيعاً فمنعنيها » .

ذلك » فقال له جبريل : « إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لأمتك » .

فقام رسول الله ﷺ فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة ، ثم دعا ، فنزل جبريل وقال :

« يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فقال : « يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض » ؟

فنزل جبريل بهذه الآية :

﴿ آلم ، أَحِسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت : ١-٢) .

فيدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث ثوبان « حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم البعض » ، أن « حتى » : غاية ، فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً .

يقول الإمام القرطبي : « وقد وجد ذلك في هذه الأزمنة بالفتن الواقعة بين المسلمين ،

---

(١) المصدر السابق – ص ٢٤٤٦ .

فعظمت شوكة الكافرين واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلا أقلّه ، فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه » .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (البقرة : ٨٤) .

كان أمر الله تعالى لبني إسرائيل في التوراة ألّا يقتل بعضهم بعضاً ولا يسترقه ولا يدعه يسرق إلى غير ذلك من الطاعات ، وهذا كله محرم علينا يقول الإمام القرطبي :

« وقد وقع ذلك كله بالفتن فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وايم الله لقد أعرضنا نحن من الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا على بعض . ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ، حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[1].

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا ترجعون بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وكان ذلك في خطبته الجامعة المانعة يوم حجة الوداع وهو يوصيهم في لقاء مودع ، « لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا » فانظر وتأمل واعتبر !

* * *

« بعد ما نجحت القوى الاستعمارية في تفتيت العالم الإسلامي اشلاء مبعثرة وظفت وماتزال كل مبررات الفرقة والتشرذم بين هذه الكيانات الممزقة وذلك بتخطيط شيطاني دءوب لإخراجها من دائرة الإسلام إلى دائرة العلمانية الكافرة ، وذلك تحت ستار من دعاوى التقدم والتطور ومسايرة العصر أدت إلى تقمصها أنماطاً مختلفة من الحكم ، والفكر والسياسة ، والاقتصاد ، والتعليم ، والإدارة ، والاجتماع ، تأرجحت بين أقصى درجات الرأسمالية المستغلة ، وأقصى درجات الشيوعية المذلة . كما تعرض بعضها للعديد من الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة التي أنهكت قواها ، ودمرت اقتصادها ، وحطمت معنوياتها ، وتركتها كيانات متنافرة ، وإقليميات متناحرة ، ومذهبيات متصارعة ، وعصبيات متطاحنة فوق أرض متشابكة الحدود والمصالح ، متعارضة النظم والفلسفات . وقد نجحت هذه القوى الاستعمارية في الإبقاء على هذه الفرقة وإشعال الحروب الباردة والساخنة بينها ، والعداوات الشخصية بين زعاماتها ، وإذكاء نيران العصبيات المنتنة ، والإقليميات الضيقة . ومثال ذلك تلك الحرب الضروس بين بلدين إسلاميين شقيقين هما العراق وإيران التي استمرت لأكثر من ثمان سنوات ، استنزفت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – ص ٤١٣ – ٤١٦ .

الطاقات والأموال ، وأراقت الدماء ، وأزهقت الأرواح ، وأفنت مئات الآلاف من المقاتلين الأشداء ، والمدنيين الأبرياء ، ودمرت الإقتصاد لكل من البلدين تدميراً كاملاً ، واستنزفت موارد البلاء المجاورة وأفسحت المجال لتدخل القوى الأجنبية الماكرة المتربصة وأتاحت لليهود العربدة في المنطقة باطمئنان »[1].

وإذا قلبنا صفحات تاريخنا قديماً وحديثاً لوجدنا أصابع التناحر والعداوة ظاهرة في سقوط الأندلس والجمهوريات الإسلامية في وسط آسيا تحت سيطرة القياصرة الروس وكذلك في سقوط الخلافة العثمانية – بعد ضعفها – وكذلك في هزيمة عبد القادر الجزائري وهزيمة أحمد عرابي في مصر وقس على ذلك في كل مكان ، وعسى أن نحذر ذلك في السودان ولبنان الآن .

* * *

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

فبانحدارنا إلى هذا المنحدر الشديد من الضعف والفرقة والتناحروالذلة طمع فينا الأعداء وتسلطوا على ديارنا واحتلوها جميعاً – إلا قليلاً – حتى إذا بلغنا الدرك الأسفل من الانحطاط ، سلط الله علينا من لا يرحمنا ، شر خلق الله وأذلهم – إلى يوم القيامة ، بني إسرائيل الذين قص الله علينا من أنبائهم في كتابه الكريم ما لم يقص عن أمة أخرى من الأمم لنتجنب سبب سوء مصيرهم وانحدارهم ولنحذرهم في ذات الوقت ونعد وسائل مواجهتهم ودحرهم .

---

(١) انظر : « قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر » – د. زغلول النجار – ص ١١٣ ، ١٢٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾
(البقرة : ٢١٧)